التكافل الاجتماعي في الإسلام

لعل أول ما يلفت النظر من توجيهات الإسلام الاقتصادية والتي تستثار عند المسلمين في شهر رمضان، (والتي ينبغي أن تظلل حياتهم في رمضان وغيره من الشهور)، تلك المظلة الاجتماعية والشبكة التكافلية التي نشاهدها في هذا الشهر الكريم، والتي تجعل المسلمين يكفل بعضهم بعضا، ويوفر قادرهم احتياجات غير القادر منهم. وتنشط هيئات المجتمع المدني في توفير احتياجات المحتاجين وتكاد جهودها تمثل مظلة تغطي كل جوانب الاحتياج للمحتاجين.

وهذه الجهود تضفى على الحياة في هذا الشهر صورة طيبة من التكافل بين الناس. وعيبها أنها موسمية وليست دائمة، وفردية وليست مؤسسية. هذا التكافل الذي يتحقق في هذا الشهر، بهذه الجهود الفردية الموسمية، يدعو الإسلام إلى تحقيقه لكل فرد في المجتمع، ليس في رمضان فقط وإنما على مدار الأعوام وطوال حياة الناس وبقاء المجتمع. فهو توجيه من توجيهات الإسلام الاقتصادية، إذ الإسلام في جملته يقوم على التكافل الاجتماعي بين المسلمين، بالمفهوم الشامل الذي يتضمن سائر مناحي الحياة المادية والمعنوية. إن صور التكافل الاجتماعي في الإسلام يجمعها الحديث الصحيح الذي يقول فيه النبي صلوات الله وسلامه عليه «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[متفق عليه] والمسلم لا يحب لنفسه ماديات الحياة فحسب، وإنما يحب لها أيضاً الحرية والكرامة والعلم والعزة، وكل ما تتحقق به سعادة الإنسان، وعليه فإن الإسلام يعرف من التكافل الاجتماعي أنواعًا كثيرة منها:

١- التكافل الأدبي. ٢- التكافل الأخلاقي. ٣- التكافل العلمي.
٤- التكافل الاقتصادي. ٥- التكافل السياسي. ٦- التكافل العبادي.
٧- التكافل الدفاعي. ٨- التكافل الحضاري. ٩- التكافل الجنائي.
١٠- التكافل المعاشي.

والنوع الأخير من هذه الأنواع أعنى التكافل المعيشي أو المعاشي هو الذي يعبر عنه المفكرون المسلمون اليوم «بالضمان الاجتماعي» ويعنون به كفالة مستوى المعيشة اللائق لكل إنسان، وهو على أهميته ليس إلا نوعًا من أنواع التكافل التي ينبغي على المسلمين أن يشيعوها بينهم، وأن يوفرها بعضهم لبعض.

وكثير من هذه الأنواع نمارسها ولا ننتبه إلى ما بها من تكافل، فإذا دققنا النظر وجدنا التكافل فيها واضحًا، فمثلاً «التكافل العبادي» يقوم بين المسلمين اليوم، وإن كانوا لا ينظرون إليه على أنه نوع من التكافل، والحقيقة أنه من أهمها وأظهرها، إن العبادات التي نؤديها تتطلب منا نوعاً من التساند والتعاضد والتكافل حتى تؤدى على الوجه الذي يرضى الله سبحانه وتعالى، فصلاة الجمع والجماعات وما كتبه الله فيها من ثواب، لا يمكن للفرد أن ينال هذا الثواب إلا إذا تكافل مع إخوانه في ذلك، فكيف يصلى المرء في جماعة إذا لم ينضم إليه غيره؟ وهناك «التكافل الدفاعي» الذي يقوم بين أفراد المجتمع في الدفاع عن المجتمع بالجهاد في سبيل الله تعالى، كيف يتم ذلك إلا بتكافل أبناء المجتمع؟ وهل يستطيع كل فرد أن يحقق ذلك بصفته الفردية؟ وكيف يحمى نفسه من الأعداء الخارجيين؟ وكيف يحمى نفسه من الخارجين على القانون في داخل المجتمع؟

أنه لا يستطيع ذلك بمفرده، ولابد من التكافل بين أبناء المجتمع ليتحقق لهم الأمن الداخلي والأمن الخارجي.

وأيضًا التكافل الجنائي، عندما يفرض الله على العاقلة أن تحمل عمن أخطأ وارتكب ما يوجب عليه دية من الديات، والتكافل الأدبي عندما يوجب على المسلم أن يتحمل الشهادة ويؤديها إذا طلبت منه حتى تحفظ حقوق إخوانه وتصان أعراضهم، وهكذا العديد من أنواع التكافل التي أوجب الإسلام على المسلمين أن تتم فيما بينهم وأن يقوموا بها من خلال جماعتهم.

والتكافل المعيشي، الذي ينشط له المسلمون في رمضان، قد نظمه الإسلام على مدار العام، وأقام له مؤسسة خاصة به، وفرض له فريضة هي أحد أركان الإسلام الخمسة، وكلف الدولة بأن تسهر على تحقيقه بأن تقدر الزكاة وتجمعها، وتحصى المحتاجين وتضع لهم مختلف التصنيفات التي تمكن من سرعة الوصول إليهم، وتحقيق مستوى المعيشة اللائق بهم، حتى لا يكون بينهم محتاج ولا محروم. فالإسلام أقام المؤسسة وكلف بها الدولة، وحدد لها الموارد، وبين لها المصارف، ولم يترك ذلك للجهود العفوية التي يقوم بها الناس أحياناً ويحجمون عن القيام بها أحيانًا أخرى.

إن الإسلام يطلب من المسلمين أن يخرجوا إلى حيز الوجود مؤسسات ومنظمات تتولى تحقيق هذه الأنواع من التكافل، وذلك قياسًا على المنظمة التي أخرجها الله تعالى إلى حيز الوجود عندما قرر فريضة الزكاة، ليتم منها تحقيق هذا النوع من أنواع التكافل الاجتماعي في الإسلام، ألا وهو التكافل المعاشي. فإذا لم تكف الزكاة فمن حق الدولة أن تتخذ من الإجراءات ما يمكنها من تحقيق التكافل المعاشي، فليست الزكاة في الإسلام وحدها هي حق الفقراء لكن حقهم يتجاوز إلى ما فوق ذلك، بل إن لهم كفايتهم بالغة ما بلغت ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾[البقرة:١٧٧]. فقد جمع الله في الآية الكريمة بين إيتاءين للمال؛ إيتاء المال على حبه، وإيتاء الزكاة، وورودهما معاً في آية واحدة يعنى أن الأول غير الثاني، وإذا كان الثاني وهو الزكاة محددًا معلوم المقدار، فإن الأول غير محدد، وإنما يكون بقدر ما يكفى الفقراء والمحتاجين، إذا لم تكفهم الزكاة. يقول الإمام علي كرم الله وجهه: «إن الله فرض في أموال الأغنياء، ما يفي بحاجة الفقراء، فإذا جاعوا أو عروا فبمنع الأغنياء، وحق على الله تعالى أن يحاسبهم ويعذبهم».

هذه المؤسسة الإسلامية مؤسسة الزكاة التي تقوم على تحقيق التكافل المعاشي بين المسلمين، علينا أن نتأسى بها في تطبيقنا لبقية أنواع التكافل، وذلك بأن يكون لدينا المؤسسات والمنظمات التي تحقق لنا بقية أنواع التكافل، فمؤسسة للدفاع ومؤسسة لرعاية حقوق الإنسان ومؤسسة للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ...الخ المؤسسات التي تتعدد بعدد أنواع التكافل والتي قلنا إنها تشمل كل ما يحقق سعادة المرء في هذه الحياة وكل ما يدخل في الحديث الشريف الذي ذكرناه «**لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**» ولا يكفى الحب النظري بل لابد من الإسهام في الممارسات العملية المؤدية إلى تحقيق مجالات التكافل كلها وبذلك تتحقق سعادة الناس وتجمل حياتهم ويحققون ما وصفهم الله به ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾ فإذا لم تقم الدول بتنفيذ هذه التوجيهات، فإن الأفراد ومؤسسات المجتمع المدني، يجب عليها أن تتقدم لتملأ الفراغ الذي يتركه تخلى الدولة عن مهمتها التي أوكلت إليها. إن التكافل الاجتماعي بين المسلمين، يجب أن يتحقق بطريقة من الطرق تنفيذاً لتوجيهات الله تعالى، وإقامة لشريعته التي جعلت دع اليتيم وعدم الحض على إطعام المسكين جعلته تكذيباً بهذا الدين، مهما كان هناك من ادعاء. يقول الله تعالى: ﴿**أَرَءَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ**﴾[الماعون:١-٣] إن رعاية اليتيم وإطعام المسكين وسد حاجة المحتاجين توجيه من توجيهات الإسلام الاقتصادية التي تؤدى بنظام مؤسسي منظم، وتنعكس على حياة المجتمع تقدمًا ونهضةً وقدرات وطاقات متاحة، تقود كلها إلى الحياة الطيبة.